« مشكلات »

للأستاذ زكى المهندس

وأخيرا قضى الأمر وأصبحت مرة أخرى فى قبضة مدير الصحيفة وهو — كما نعلم جميعا — قاس فى الحق لا يرحم وصلب فى الجد لا يلين . ومن قبل كنت كثيرا الافتتان فى المراوغة والاحتيال والزوغان ، أبدو ثم أختفى وابدأ ثم لا أنتهى واعد ثم أخلف ولكن ماحيلتى اليوم وقد نصب مدير الصحيفه حولى شباكه وحاطنى بحبائله واستطاع فى حذق دبلوماسى بديع أن يحمل مجلس الجماعة على أن يقرر أن اكتب فى الصحيفة وأن يكون لى مقال فى كل عدد !! وارحمتاه لقرار الصحيفة أين المهرب اليوم وسيف المجلس مصلت فوق رأسى وسوط مدير الصحيفة يلهب ظهرى ؟! إذا لابد أن أكتب فى الصحيفة ولا بد أن يكون لى فى كل عدد مقال ولابد من أن أصطنع بحثا يشوق القراء ولابد — فوق هذا وذاك — من أن أقدم بحثى فى موعد مضروب لا أشذ فيه ولا أتخلف عنه ولا تشفع فيه معاذير ولا يجدى فيه احتيال ، حتى لقد فكرت فى سبيل امتداد الأجل المعين للمقال فى أن أرشو مدير الصحيفة بكوب من الشاى ولكن أخوف ما أخافه أن يستجيب لدعوتى وبعد أن يأكل مريئا ويشرب هنيئا يذكرنى بهذا الموعد المضروب ويلح فى طلب المقال

على أنى لا أكتم قراء الصحيفة أنى بدأت أنشط من أجل الصحيفة واضحى فى سبيل الصحيفة ولم يكن مبعث هذا النشاط وتلك التضحية قرارا لمجلس أو قرارا من لوم أو التماسا لحسن أحدوثة وإنما كان صديقى محمد على مصطفى نفسه هو مصدر هذا النشاط والتضحية حقا أن « محمد على » يضرب لنا أروع مثل فى النشاط والتضحية فأنت إذا رأيته يتعقب الكاتبين ويستنهض هممهم لتغذية الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقضى الشطر الأكبر من وقت فراغه فى قراءة كلمات الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقوم بهذا كله فى صبر لا ينفد وعزيمة لا تفتر لا يسعك إلا أن تشعر فى قرارة

نفسك بالأعجاب والخجل ولايسعك حيال هذا إلا أن تلبى نداء الواجب وتنهض لخدمة الجماعة . حقا — أيها الاخوان — ليس فى وسع امرىء يرى أمثال محمد على مصطفى فى نشاطه وحيويته وتضحيته من أجل الجماعة ثم يتراخى إذا طلب اليه العمل أو يضن إذا كلف البذل .

و « بعد » فماذا عسانى أن أكتب فى الصحيفة ؟ إن ذاكرتى تعج بموضوعات مختلفة متنوعة تتوارد كلها فى وقت واحد حتى لتسد على مسالك التفكير وتكاد تشل قلمى عن الكتابة ولعل اختيار الموضوع اشق من الكتابة فيه ولكنى على كل حال مازلت أومن بأن أجدى الموضوعات على المعلمين هى تلك التى تتصل اتصالا مباشرا بأعمالهم والتى قد يجدون فيها بعض الهدى والرشاد فى تذليل مايواجههم من مشكلات وما يقوم فى طريقهم من صعاب أما ماسوى ذلك من موضوعات عامة أدبية أو اجتماعية فهى عنـــدى فى المرتبة الثانية .

وأنا لاأقول جديدا حين أذكر أن مدرس اللغة العربية من ناحية عمله الفنى قد أصبح فى منزلة لايحسد عليها إذا قيس بزملائه من مدرسى اللغات الأخرى . ذلك أن عملية التدريس فى اللغة العربية مافتئت تقوم على أساس ارتجالى ليس له سند من علم ولا ظهير من تجربة معينة محدودة ولا تأييد من احصـــاء علمى مضبوط . ان مناهجنا الدراسية وكتبنا المقررة وأساليب تعلمنا ونظام تفتيشنا كل أولئك يقوم على الأرتجال ولاشىء غير الارتجال ، أنها تقوم على آرائنا الشخصية وأفكارنا النظرية وملاحظاتنا العامة حقا أن ذكاءنا المجرد يلعب دورا هاما فى توجيه التعليم فى اللغة العربية . وكل عمل يقوم على مثل هـذا هو السر فى أننا حتى اليوم لم نثبت على حال ولم يستقر لنا قرار . فالمفتشون قلقون والمدرسون ناقمون والطلبة بين هؤلاء وأولئك كارهون أن يفيدوا من اللغة العربية إلا بالقدر الضرورى الذى يعينهم على اجتياز الامتحان . واللجان فى الوزارة تؤلف ثم تنفض والقرارات تبرم ثم تنقض والتعليمات تصدر ثم تنسخ والمناهج توضع ثم تعـدل وأساليب التدريس تقترح ثم يتنازع فيها ويختلف عليها ، وليس هـذا كله بعجيب فتلك طبيعة كل عمل

يقوم على الارتجال .

انك لاتجد شيئا من هذا فى أعمال مدرسى اللغات الاخرى فقد وضعت بين أيديهم جميع الوسائل التى تعينهم على القيام بأعمالهم فى شىء من الاستقرار والطمأنينة والثقة . ان سبل العمل أمامهم مفتوحة وطرقه معبدة وغايته جلية واضحة أن لديهم أنواعا من الكتب يضيق دونها الحصر وكلها فاتنة شائقة محببة إلى نفوس النشء وقد قصد بها مؤلفوها إلى غايات لغوية فنية محدودة . إن لديهم أساليب فى التدريس وصل اليها واضعوها بعد دراسات علمية عميقة ثم قدموها إلى مدرسينا جاهزة رخيصة . ان لديهم نوعا من التفتيش يجرى على أسلوب مرن سهل ولكنه وليد دراسة أحكمتها التجربة وصقلها طول الاختبار . كلنا يعرف أن تعليم اللغة الانجليزية مثلا يجرى فى جميع معاهدنا على طريقة (وست) ولكن هل غاب عنا كيف أدخلت هذه الطريقة فى مدارسنا المصرية ؟ وهل نسينا تلك التجارب الرائعة المنظمة التى كانت تجرى تحت رعاية مس (كارتر) وسواها من كبار المفتشين والمفتشات فى بضع مدارس للبنات ؟ هل غرب عن أذهاننا تلك البحوث القيمة التى تناولت طريقة (وست) بالتغيير والتحوير والصقل قبل أن تفكر الوزارة فى تعميمها فى جميع المعاهد ؟

فاين تدريس اللغة العربية من هذا كله ؟ ان بين أيدينا مشاكل جمة ولكن اعجب العجب أن كثيرا منا لايحسون هذه المشاكل ولا يدركون أثرها فى أعمالهم بل أن بيننا عددا من المدرسين يؤمنون بأننا قد أوفينا على الغاية فى تدريس اللغة العربية وأنه ليس فى الامكان أبدع ولا أروع مما كان ولكن صدقونى — أيها الاخوان — حين أقول لكم أن عملنا فى المدارس وبخاصة المدارس الثانوية ملىء بالمشكلات حافل بالصعاب محفوف بالمكاره ، وانه بالرغم من تلك الجهود الجبارة الموفقة التى يبذلها المدرسون فى الوقت الحاضر مازلنا بعيدين كل البعد عن أدنى مراتب الكمال ، وأنه إذا أريد للغة العربية أن تبلغ مايجب أن تبلغه من نفوس الاحداث والشباب وان تملك زمامهم وتستهوى عقولهم وقلوبهم فلا بد من أن نضع مسألة التعليم برمتها موضع البحث والدرس والتجربة .

ومما يدعونا جميعا إلى الاغتباط ويبعث فى نفوسنا الطمأنينة أن رجال التعليم وأولى الأمر فى الوزارة قد بدءوا يدركون شيئا من وجوه المشكلات التى تواجهنا فى تعليم اللغة العربية ، وأصبحوا يعترفون بأن التبعات التى ألقتها الأقدار على كواهلنا فى حياتنا الجديدة هى أشق التبعات فى أعمال التعليم كلها ، فلا يسع أحدا بعد اليوم أن يجحد مايقوم به المدرس من أعباء تكاد تقصم ظهره وتهد كيانه وتسلبه راحته ووقت فراغه .

حقا ان رجال الوزارة قد أصبحوا يقرون لنا بهذا كله ولا ريب فى أن لنا فيه بعض العزاء عما نكابد فى عملنا من عناء وما نلقى فيه من مشقة غير أنهم يكادون يجمعون أيضا على أن الأثر الذى نتركه فى نفوس تلاميذنا مافتىء ضئيلا لايتناسب وتلك الجهود التى نبذلها والأعباء التى ننهض بها . وليس لهذا من تعليل سوى الافتراض بأن أداة التعليم مختلة معتلة فى بعض نواحيها فهل المناهج الدراسية أو أساليب التعليم أو كفاية المدرسين أو استعداد الطلبة أو سوء التوجيه فى التفتيش هل واحد من هذه أو بعضها أو كلها مجتمعة هو موطن الداء وأصل العلة ؟ هذه هى المسألة التى يجب أن نكشف عنها بالبحث والدرس وأن نعالجها بما هو خليق بها من تغيير أو تبديل على شريطة أن يجرى هذا كله عن طريق التجربة المنظمة والاحصاء العلمى الدقيق .

ان فى وزارة المعارف لجنة مؤلفة للنظر فى اصلاح اللغة العربية وقد تناهى الينا من أنبائها أنها تعنى ببحث مسألة التعليم فى جملتها ، وأنها استعرضت فيما استعرضت جل المشاكل التى تواجه المعلم فى الوقت الحاضر وأنها فى سبيل ذلك قد دعت اليها جمعا حاشدا من المدرسين والمفتشين تحدثت اليهم وسمعت منهم كل هذا حسن وكله يبعث فى نفوسنا الاغتباط ويفسح فى صدورنا الأمل فلاشك عندى فى أن اللجنة واصلة بعملها إلى نتائج سيكون لها أثرها البعيد فى عمل المدرس والتلميذ كليهما ولكنى مقتنع كل الاقتناع بأن اللجنة لاتستطيع أن تضمن دوام الأثر لقراراتها إلا عن طريق التجربة والاختبار . فليجرب ماتراه اللجنة من آراء وماتصل اليه من نتائج تجريبا علميا منظما فى مدرسة أو اثنتين وليجر هذا التجريب بواسطة عدد ممتاز من المدرسين وتحت رعاية

ما يتعلق بتركيب الجمل

لوحظ هنا أن الجمل بوجه عام فى تطورها تميل إلى ما يمكن أن يسمى بالتحليل واستقلال عناصر الجملة ، وانفصالها بعضها عن بعض . فى اللغات القديمة تكونت الوحدة اللغوية فى الجملة من عناصر متعددة لوحظ أنها مع مرور الزمن تنفصل وتكون وحدات مستقلة . فأمثال تلك العبارة التى وردت فى القرآن « أنلزمكموها » التى تشتمل على ستة عناصر (أداة الاستفهام + فعل + اسناد إلى المتكلمين + ضمير المفعول للمخاطبين + واو الاشباع + ضمير المفعول للمفردة) لاتكاد توجد فى اللغات الحديثة بل يغلب أن يعبر عن معظم العناصر السابقة بوحدات لغوية مستقلة . وما يقال فى « أنلزمكموها » يقال أيضا فى « فسيكفيكهم » .

والأمثلة التى يوردها المحدثون لتوضيح ما تقدم من اللغات الهندية الأوربية لاحصر لها ولكنى أكتفى هنا لضيق المقام بذكر قليل من الأمثلة من اللغات السامية .

كذلك لاحظ المحدثون أن اللغات بوجه عام فى تطورها تميل إلى الاطراد والقياس . فالتعبير عن التأنيث والتذكير كان فى لغات ماقبل التاريخ بكلمات خاصة بالمؤنث وأخرى بالمذكر . وبقايا هذا لاتزال فى اللغات الحديثة أمثال «أب» مؤنثه «أم» . « حصان » مؤنثه « فرس » وهكذا . وأمثلة الصيغ السماعية فى اللغة العربية معروفة لاتحتاج إلى بيان . كما أن المسند اليه فى اللغة العربية يختلف موضعه فى الجملة فأحيانا يسبق الفعل ويسمى مبتدا واحيانا يليه فيسمى فاعلا ووظيفته فى الحالين هى هى . فاذا قارنا هذا بلغة الكلام عندنا الفينا موضعا واحدا للمسند اليه يطرد هذا الموضع فى كل جملة . ولغة الكلام ليست إلا تطوراً للغة العربية .

من كل ماتقدم وصل المحدثون الى قانون عام للتطور اللغوى هو : « تميل اللغات بوجه عام فى تطورها الى التقليل من المجهود العضلى فى نطق الأصوات والى فصل عناصر الجملة وقلة الاوزان والاطراد » .

أما من ناحية المفردات فقد لوحظ أيضا أنه كلما تقدمت اللغة كانت أقدر على المعنويات . والعلماء يسوقون هنا أمثلة لاحصر لها فى عليه مفردات اللغات فى

ثلاثة أو أربعة من صفوة المفتشين وعلى ضوء النتائج فى هذه التجارب نرتب أعمالنا ونفرضها على المدرسين جميعا ليأخذوا بها . هذا هو الأسلوب العلمى المنظم للبحث فى كل ضروب الاصلاح فى التعليم وفى غير التعليم .

أجل — أيها الاخوان — لقد حان الوقت لأن ندرك أن هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر تجربة واختبار واحصاء وأنه لااستقرار لنظام ولا بقاء لعمل ولا دوام لمقترح ما لم تكن دعامته التجربة المنظمة والاحصاء العلمى المضبوط وتعليم اللغة العربية ليس بدعا فيجب أن يخضع لما تخضع له كل ضروب الاصلاح إذا أردنا أن يكون الاصلاح فى اللغة العربية اصلاحا مستقرا ثابتا يقنع المدرسين وتطمئن اليه نفوسهم .

لقد قلت وما زلت ألح فى القول بأن بين أيدينا مشاكل جمة لا يغنى فى حلها الذكاء المجرد والآراء النظرية والتجارب أو الملاحظات العامة بل لابد فيها من التجريب المنظم ولو طال وقته واتسع مداه فكلنا يعتقد أن تدريس البلاغة مثلا على الصورة التى يجرى عليها حتى الآن ليس فيه غناء وأنه إذا أريد أن يتذوق الطلبة الأسلوب العربى وأن يدركوا مافيه من روعة وجمال وجب أن نتجه بهذه الفنون الأدبية اتجاها جديدا يكفل تحقيق الغاية منها .

وكلنا يحس أن الروابط بين مطالعة التلاميذ ومحفوظاتهم من ناحية ومنشآتهم من ناحية أخرى مفككة منحلة فالمادة اللغوية التى ينهلها الطالب من كتب المطالعة والنصوص والمحفوظات تظل راكدة ميتة لأنها بعيدة كل البعد عما يكتب فيه وقد تكون هذه المادة — فى أحسن الحالات — مادة قيمة واسعة ولكنها كالجوهرة المطروحة المجفوة فى جوف البحار لايستفاد منها ولا ينتفع بها فاذا كتب الطالب نزل بأسلوبه إلى فهاهة العامة أو قريبا منها ومن ثم وجب أن نفكر فى خطة جديدة تقوم على توثيق الروابط وتأكيد الصلات بين دروس المطالعة والمحفوظات والانشاء إذا أريد أن يستفيد الطلبة مما يقرءون ويستظهرون بحيث يتجلى أثره فى كتابتهم .

ولقد أصبحت مسألة التصحيح فى الانشاء كذلك أعقد العقد واحدى الكبر فى

تدريس اللغة العربية فكلنا يعلم أن تصحيح الانشاء أشق واجب فى أعمال المدرس بل أشق واجبات التعليم كلها فلو أن مدرسا أضيف إلى جدوله حصص بقدر مالديه من كراسات على أن يعفى من هذا التكليف الشاق لكان من المحتمل أن يقبل هذا راضيا مسرورا فهل هناك من المدرسين من يطالبنى بدليل على أن تصحيح الكراسات عمل يستفرغ جهد المدرس ويستنفذ حيويته ونشاطه ويحطم من أعصابه ويهد من كيانه ، أنه عمل يكد الذهن ويقبض المضجع ويسلب الوجوه بشاشتها ومرحها والعقول اتزانها وصفاءها ، ولكنه فى الوقت نفسه أهون الأعمال شأنا فى نظر التلاميذ وأقلها فائدة لهم وأضعفها أثرا فى تقويم المعوج من عباراتهم وتصحيح الفاسد من أفكارهم وأخيلتهم . حقا ان هذا العمل الشاق الذى يشغل جميع وقت المدرس وينغص عليه حياته لايعدو أن يكون فى نظر التلاميذ عملا آليا هينا لايعنيهم منه إلا ذلك الرقم الأحمر يتناولونه سراعا بأطراف ألحاظهم ثم يطوون الكراسات طيا ويقذفون بها فى أجواف قماطرهم . فاذا فعلنا حيال الانشاء وتصحيح الكراسات ؟ هل فكرنا فى خطة واضحة مثمرة تخفف من هذا العبء عن المدرس وتضمن فائدة جوهرية للتلميذ ؟ وهل زاد عملنا فى الانشاء وتصحيح كراساته على أن قدمنا فى سبيله الضحايا وقربنا القرابين كما كان يصنع قدماء اليونان مع إله الحرب والضرب والانتقام ؟ ولكن هل استفاد الانشاء من عملنا هذا شيئا يذكر ؟ وهل استطعنا أن نحل عقدة فى ألسنة التلاميذ أو نمحو حبسة عن أقلامهم أو نعالج خطلا فى أحكامهم أو نصحح فاسدا فى أفكارهم أو حدبا فى خيالهم ؟ أرأيت لو أن مدرسا تناول قلم الأحمر وأخذ يصول به ويجول بين السطور فلم يدع كلمة نابية إلا غيرها ولا همزة قطع أهملت إلا سجلها ولا عبارة ركيكة إلا أقام أودها وأحكم نسجها ولا فقرة مهلهلة إلا قوى روابطها وهذب حواشيها ولا فكرة خاطئة إلا سدد معانيها ووضح مراميها لو أن مدرسا صنع هذا كله فيما بين يديه من كراسات أكان هذا يقدم أم يؤخر فى قدرة التلاميذ على الكتابة ؟ لا — أيها الأصدقاء — إنى لأزعم أنه ليس بيننا رجل واحد يعتقد جادا أن العناية بتصحيح الكراسات — أيا كان مبلغ هذه العناية — من شأنها أن تجعل أقلام التلاميذ أوضح بيانا وألسنتهم أفصح مقالا ذلك أن القدرة

الامم الأولية فى وسط افريقيا وجنوبها مثلا . كما انه كلما تقدم الزمن باللغة قلت فيها المترادفات التى تعبر عن المحسوسات . وقد ملئت كثير من اللغات القديمة التى رواها لنا التاريخ بعشرات من الكلمات المترادفة مما يجعلنا نرجح أن لغات ماقبل التاريخ انتظمها طوفان من تلك المترادفات ورغم هذا قصرت عن التعبير عن كثيرا من المعانى التى دعت إليها حياة المدنية . وقد ترتب على هذا ان كثيرا من الكلمات المحسوسة التى كانت تخاطب القلب قبل العقل اخذت ثوبا معنويا وبهذا أصبح التعبير عن الفكر عملا آليا أو شبه آلى لا يميل كثيرا إلى الناحية الشعرية من اللغة . ولهذا سبقت اللغة الشعرية لغة النثر مما جعل العلماء يصورون لنا لغات ماقبل التاريخ أقرب إلى الشعر منها إلى النثر مملوءة بألوان المجازات والاستعارات . وقد ايدهم فى هذا الرأى مايشاهد الآن بين لغات الأمم الاولية .

نشأت اللغة إذن فى صورة كغناء الطيور وضجيج الحيوان وصياح الاطفال كانت تصدر عن الانسان لا لايصال افكاره لبنى جنسه بادىء الامر بل للترفيه عن دافع نفسى يجعله يصوت دون ملاحظة لما حوله من بنى جنسه ثم تطورت الى غناء او مايشبه الغناء فى جمل مملوءة بالاصوات قليلة المعانى او مجردة عنها ، جمل معقدة العناصر لا كوسيلة للتفاهم بل لتمرين عضلات الصوت لمجرد التسلية . فلما بدأ الانسان يستخدم تلك الاصوات التى ظل يلهو بها زمنا طويلا فى التفاهم مع غيره بدأ بهذا مانسميه لغة .

ولكن كيف انتقلت تلك الاصوات التى لامعنى لها والتى لم يقصد بها إلا مجرد التسلية الى مرحلة المعانى فاتخذت كل منها معنى ؟ الكلمات التى نلحظ فيها رابطة بين صوتها ومعناها تفسر لنا جزءا ضئيلا من مادة اللغات ولكنها تعجز عن تفسير الجزء الأعظم منها . فلنبحث إذن فى الكلمات التى لانلحظ فيها رابطة بين المعنى والصوت . اننا اذا علمنا ان الكلمات الاولى كانت اميل الى المحسوسات استطعنا ان نتصور أن أول ما اتخذ معنى هو تلك الكلمات الأعمق فى المعانى الحسية . وهذه من غير شك هى اسماء الأعلام . ونحن نعرف من المراحل التاريخية للغات كيف سهل تحول الأعلام الى كلمات عامة تعبر عن معنى عام .

فالاصوات التى صدرت عن الجماعات الانسانية الاولى ربطت بالعمل الجمعى

على الكتابة والتحرير لاتتصل بالتصحيح إلا برباط واه ضعيف وان شئت فقل ان تصحيح الكراسات لايعدو أن يكون توجيها لهذه القدرة لاسببا لها كما يعتقد كثير من الزملاء الأفاضل وأشعر بأننا قد ضحينا بالأسباب الحقيقية لتكوين هذه القدرة فى التلاميذ فى سبيل العناية بتصحيح الكراسات حسبك أن تنعم النظر فى الكراسات لترى أنه — بالرغم من هذا الجهد الشاق المضنى الذى يبذله المدرس فى التصحيح — يكاد يكون أول موضوع يبتدىء به الطالب كآخر موضوع ينتهى اليه وان مادة الطالب لاتزيد على بضع مئين من ألفاظ وعبارات عادية تتكرر فى كل مقال وتبدو فى كل موضوع .

وأعود فأقول ان تعليم الانشاء أو تصحيحه قد أصبح عقدة العقد ومشكلة المشكلات فى تعليم اللغة العربية فقد كان التصحيح عملا شاقا فحسب ولكنه قد أضحى اليوم عملا رهيبا مخوفا محفوفا بالمكاره لأننا نلمح فيه مايمكن أن ينتظرنا من تنزيل أو تشريد فهل من سبيل إلى الحل ؟ ذلك ماسأحاوله فى الأعداد التالية فإلى اللقاء .

زكى المهندس
وكيل دار العلوم